كيف دخل الفرنسيّون الجزائر

وَصْفُ شاهِدِ عَيان

وَضَعَهُ

أحمد الجزائري

نَشَرَهُ وَقَدَّمَ لَهُ

صَلاح الدّين المنجّد

دار الكتاب الجديد

جميـــع الحقوق محفوظة
١٩٦٢

كانت فرنسة تريد ان تعمل ، بعد معاهدة ١٨١٥ ، عملا يعيد اليها ما فقدته من عظمتها ومجدها ، ذلك لان هـذه المعاهدة ، وما سبقها من حروب نابليون ، اضاع منها الكثير من امبراطوريتها وسلطانها •

وكانت الجزائر ــ بموقعها الاستراتيجي المحكم ، الذي يسيطر على الملاحة في البحر الابيض ، وبثرواتهـا الطبيعية الوافرة ، المتناثرة في بحرها ، وجبالها وسهولها ، وخوفا ان تكون تحت سيطرة دولة اوروبية ثانية ــ هدفا لاطماع الفرنسيين • فكانوا يودون السيطرةعليها وامتلاكها ، ويعدون ، خفاء ، الوسائل الى ذلك • حتى كانت حادثـة قنصل فرنسة فيها « ديفال » الذي اساء الادب امام حاكم الجزائر الداي حسين باشا ، فلطمه هذا بمذبته وطرده ، في ٣٠ نيسان ١٨٢٧ ، ورفض بعد ذلك ان يعتذر لفرنسة عما فعله • فاتخذت فرنسة هذه الحادثة سببا ، وجعلتهـا منطلقا لتنفيذ استيلائها على الجزائر •

وكان الداي حسين قد تولى حكم الجزائر عام ١٨١٨ • وكان الفرنسيون انفسهم يصفونه بالعقل والحزم • ولم تقع اساءة الادب من القنصل ــ وقد اعترف بها المؤرخون الفرنسيون انفسهم ــ مصادفة ، فقد كان هذا القنصل يثير الداي عمدا • حتى ان الداي كان طلب في اكتوبر سنة ١٨٢٦ من وزارة الخارجية الفرنسية سحبه ، واتهمه بالتآمر والفساد والرشوة • لكن الحكومة الفرنسية لم تستجب له •

وكانت فرنسة لا تقوى ، اثر حادثة القنصل ، ان تقوم بعمل حربي ، لانشغالها بالحرب اليونانية • فاكتفت بفرض حصار بحري على الجزائر • فلما انتهت حرب اليونان مع الدولة العثمانية في ايلول من سنة ١٨٢٩ رأت ان تبادر لتعمل شيئا •

وكان رئيس وزراء فرنسة دبولينالك ممتلأ حماسة لاخذ الجزائر • فصادف ان قنصل فرنسة في مصر، دروفتي، كان من اصدقاء محمد علي • وكان محمد علي يعتزم الاستيلاء على بلاد الشام • فرأى دروفتي ان يوجهه نحو شمال افريقية ، لينشيء فيها مملكه واسعة • وقبل محمد علي هذا الاقتراح • فكتب دروفتي الى دبولينالك يحسن له هذا الامر ، وأثنى في تقريره على الجيش المصري الدي

سبق ان احتل السودان والحجاز •

وبعد ان استزداد دبولیناك القنصل من المعلومات عن الجيش المصري ، قبل الاقتراح ، لكنه اراد ان يخبر الباب العالي بالامر • فـارسلت وزارة الخارجية الفرنسية مذكرة الى سفيرها في الاستانة ليفاتح الباب العالي بالامر • ومما جاء في المذكرة :

« ان داي الجزائر اهان الملك ، فاعتزم الملك ان يثأر لشرفه • وليس في نية جلالته ان يطلع الباب العالي علـى الوسائل التي سيلجأ اليها ، بل يكتفي بأن يقول ان واجبه يقضي بان يصون رعاياه ــ اي الفرنسيين ــ عن الاخطار التي تهددهم في هذا الجزء من الامبراطورية ، ويضمن لهم الامن • ولكنه ، رغبة في المحافظة على الصداقة القديمـة القائمة بين فرنسة وتركيا ••• يود لو ان السلطان يقوم بنفسه ، وبوسائله الخاصـة بتأديب عامل لا شك انـه لا يرضى قط عن شذوذه عن الادب واللياقة • واذا شـاء السلطان ان يؤدب هذا العامل الشاذ ، فان له في القـوة العسكرية التي يملكها باشا مصر ما يضمن تنفيذ ارادته • ووضع هذه المهمة في عنق محمد علي تبعد جيشه عن بلاد عربية لم ينفك عن التفكير في بسط سيادته عليها ••• وللسلطان ان يصدر فرمانا يأمر محمد علي بالاستيلاء على

الولايات الثلاث (اي طرابلس ، وتونس ، والجزائر) واقامة حكم جديد فيها يضمن الهدوء والاستقرار ...

واضافت المذكرة :

« وان اوروبا ستنظر بسرور الى قيام مثل هذا الحكم في بلاد تظهر مزاياها واضحة للتجارة والانتاج ، قد جعلها جهل حكامها الحاليين وجشعهم مرتعا للقراصنة. ومن مصلحة الباب العالي ان تزول دولة هؤلاء الحكام الذين لا يدفعون لخزانته شيئا مما يجبون ، وتحل محلها ولاية محمد علي ، فيكون للخزانة منها مثل مالها من مصر ، وعندئذ تصبح هذه الولايات خاضعة مباشرة للاستانة ، وفي هذا تعويض عما ضحى به السلطان في معاهدته مع روسيا . »

وواضح ان هذه المذكرة مملؤة بالمغالطات .

وفي نفس الوقت اخذ د بولیناك ، بواسطة قنصله في مصر ، يفاوض محمد علي في وضع اتفاق بشان الحملة ، يتعهد فيه بان يقوم بالحملة وحده وبجنوده ، على ان تقدم له فرنسة قرضا يبلغ عشرة ملايين فرنك تدفع له على اقساط اثناء الحملة ، ويسددها بعد ذلك في مدة عشر سنوات ، وان تشدد فرنسة الحصار البحري على شواطيء طرابلس وتونس والجزائر .

وقد قبل محمد علي هذه الشروط ، لكنه طلب ان تقدم له فرنسة بدون ثمن او مقابل اربع سفن حربية كبيرة سلاح كل واحدة منها اربعون مدفعا ، وان تقرضه واحدا وعشرين مليون فرنك يسددها في اربع سنوات تبدأ في اليوم الذي يتم فيه احتلال الجزائر • ، وان تتعهد فرنسة بتقديم الضباط والخبراء في المدفعية والهندسة والسلاح والعتاد لابراهيم باشا ــ الذي سيقود الحملة ــ اذا احتاج ذلك ، وان يتعهد ملك فرنسة بحل كل خلاف ينشأ بين محمد علي وبين الدول الاخرى ، وبحماية مصر من كل اعتداء عليها •

وفي مقابل ذلك يتعهد محمد علي بأن يقيم في افريقيا الشمالية حكومة تعطي فرنسه امتيازات اقتصادية في البلاد ، وان يقضي على القراصنة الافريقيين في البحر المتوسط ، وان يدفع لخزانة السلطان مثل ما يدفعه لها عن مصر •

وقد وافقت كل من بروسيا وروسيا على خطة فرنسة، وأبدت النمسة بعض التحفظات •

ولكن حدث ان طلب محمد علي السفن الاربع لم يلاق موافقة من فرنسة ، وحدث ، من ناحية اخرى ، ان المفاوضات بين السفير الفرنسي والباب العالي لم تنته الى

ايجاب ، لان وزير الخارجية العثمانية فاتح بالامر سفير بريطانيا ، فحذره السفير من عواقب الحملة ، ومن توسع سلطان محمد علي • فرفض السلطان محمود الثاني الاقتراح الفرنسي ، رغم ان السفير هدد بأن فرنسة ستقوم بالحملة وحدها ، واكتفى بان وعد بارسال طاهر باشا الى الجزائر لحمل الداي على الاعتذار •

عندئذ اتخذ مجلس الوزراء الفرنسي في ٣٠ كانون الثاني ١٨٣٠ قرارا بان تغزو فرنسة الجزائر نفسها ، بدلا من محمد علي ، تاركة لهذا ان يفتح طرابلس وتونس اذا شاء •

لكن محمد علي رفض ، وكان يجامل انكلترة ويداريها ، ويصادق فرنسة ويحبها ، فولى وجهه آنئذ نحو الشام •

وهكذا لم تنته المفاوضات الى تنفيذ حملة محمد علي •

وقد كانت فرنسة مدفوعة الى هذا القرار لان اوضاعها الداخلية كانت تزداد سوءا ، وكانت الحكومة تود الهاء الشعب ودفعه الى احراز امجاد في الخارج يمكن الحصول عليها بسهولة ، لكنها كان حائرة ، حتى ان د بولينالك ، قبل ان يرسل بورمون لقيادة الحملة عرض على مجلس الوزراء ان يختار احد الامور الاتية :

١ ــ ابقاء الداي في حكم الجزائر ، على ان تشرف فرنسة عليه من الناحية العسكريه ، فيحدد عدد الجيش والاسطول ، الذي يستطيع الاحتفاظ به •

٢ ــ او اعادة الجزائر الى الدولة العثمانية لانشاء حكومة منظمة فيها ، تضمن احترام الجزائريين للملاحة الأوروبية في البحر المتوسط •

٣ ــ او ان تتقاسم فرنسة الجزائر مع الدول الاوروبيه وخاصة انكلترة •

٤ ــ او ان تحتل فرنسة الجزائر بصورة دائمة ، وان تستغلها اقتصاديا •

لكن الذي غلب هو الرآي الاخير •

وقد لحظ بعض الباحثين ان الى جانب هذه الاسباب كلها ، عوامل دينية ايضا • فقد ورد في تقرير قدمه وزير الحربية الفرنسية بهذا الشآن قوله :

« لقد ارادت العناية الالهية ان تستثار جلالتكم في شخص قنصلكم بواسطة الد اعداء المسيحية ، ولعله لم يكن من باب المصادفة ان يدعى ابن لويس التقي ، لكي ينتقم للدين ، وللانسانية ، ولاهانته الشخصية في نفس الوقت • ولعل الزمن يسعدنا بآن نتنهز الفرصة لكي ننشر المدينة بين السكان الاصليين وننصرهم • »

ونقل انه عند احتلال الجزائر اقيمت صلوات قال فيها قسيس الجيش لقائد الحملة بورمون :

« لقد فتحت بابـا للمسيحية في افريقيه • »

وهكذا نرى انه كانت هناك اسباب كثيرة ، بعيـدة وقريبة لاحتلال الجزائر • اما صفعة الداي واعمال القراصنة ، فكانت الشرارة الاولى ، والسبب الظاهر الذي تعلق بـه الفرنسيون وضخموه لتنفيذ محاولتهم التي كانوا يفكرون فيها منذ سنين •

— ٢ —

يقدم لنا النص الذي سيتلو مقدمتنا هذه حقائـق كثيرة جديرة بأن ينظر فيها :

١ — فالجزائري يذكر ان المناقشه بين الداي والقنصل افضت الى المشاتمة ، وان القنصل مد يده الـى سيفه ليضرب الداي •

وعلى هذا يكون القنصل هو الباديء بالشر ، ومـا فعله الداي من لطم القنصل وطرده كان ردا للاهانة • وهذا الامر لم تذكره المصادر الاخرى •

٢ — ونرى فـي النص ان الداي اصـر على رفض الاعتذار للفرنسيين ، ولعله كان يرى انه لم يكن ملوما •

وهو لم يجبر القنصل ، ولا الفرنسيين على الخروج من المدينـــة •

٣ ــ ونرى اعتراف الفرنسيين المقيمين فـــي الجـــزائر بأن القنصل هو المخطىء الملوم •

٤ ــ امر حسين باشا السفن الاسلامية بالطـــواف بالبحر، ونهب ما وجدته• وهذه المنهوبات كان من الاسباب التي غضب شارل العاشر من اجلها، ففرض الحصار البحري على الجزائـــر •

٥ ــ التمس الفرنسيون الصلح ثلاثـــة عشر مـــرة ، لفرض شروطهم ، فلم يجبهم الداي • وكان اهل الجـــزائر انفسهم رجوه في قبول اجابة الفرنسيين الى ما طلبوه فأبى•

٦ ــ ارسل محمد علي باشا والي مصر من رجاله مـــن يطلب من الداي اجابة الصلح •

٧ ــ وكذلك طلب قبودان السفن الانكليزية من الداي ان يعقد الصلح فرفض •

٨ ــ وارسل السلطان عبد الرحمن افندي وكيل باش مفتش الترسانة الى الداي لاجل الصلح ، فاخفى الداي امـــر مجيئه •

٩ ــ حكومة الجزائر تتابع ضرب السفن الفرنسيه ،

وقبودانات الجزائر يحنقون لذلك •

١٠ ــ خسرو باشا ، الصدر الاعظم ، يرسل خليل آغا وكيل الجزائر بآزمير لحث الداي على الصلح ، فلم يصغ حسين باشا لمقاله •

١١ ــ وكأنما جرت محاولة لقتل حسين باشا من رجاله الذين كانوا يميلون الى الصلح • لذلك نجده يضرب اعناق عدد منهم •

١٢ ــ التحام القتال في سيدي فرج (على ٤ فراسخ غرب الجزائر) بين الفرنسيين واهل الجزائر • الجزائريون ينهزمون ، ثم يجمعون شملهم ويكسرون الفرنسيين ، ثم يبيتهم الفرنسيون فينهزمون •

١٣ ــ الداي حسين يطلب احمد الجزائري ، مؤلف الرسالة ، ويخبره بما حدث • فيطيب خاطره • الداي يحث الناس على القتال، ويردهم الى الحرب، فينهزم الفرنسيون•

١٤ ــ الفرنسيون يعودون الى الهجوم على المسلمين والسفن الفرنسية تحاصر الجزائر وتضرب المدينة •

١٥ ــ الداي يجتمع بوجوه المدينة ويبلغهم انه هو السبب في وقوع هذا الامر • اهل المدينة يجمعون على التسليم •

١٦ ــ احمد الجزائري لا يستحسن الرآي ، ويخرج فيحث الناس على القتال •

١٧ ــ الداي يمنع احمد الجزائري ، ويفهمه انه هو، خالف مشيئة السلطان في كل ما فعل ، فيرجع احمد عن رأيــه •

١٨ ــ احمد الجزائري يذهب الى رئيس الفرنسيين ويتضرع اليه ، ويحصل منه على الامان لكل من اراد الخروج من المدينة • او الدخول اليها ، ثم يرحل هو عن المدينة الى ازمير •

فهذه الامور التي تقدمها الرسالة جديرة بان تعرف وان تناقش • على ان هناك شيئا واضحا هو ان القنصل هو الذي بدأ بالاهانة ، وان الفرنسيين اصروا على الصلح لاملاء شروطهم ، وان الداي رفض التسليم والاعتــذار ، وحث على القتال ، رغم مشيئة السلطان ، وطلب محمــد علي والي مصر ، وقبودان الانكليز •

ــ ٣ ــ

ولننتقل الان الى البحث عن مؤلف الرسالة • كل ما نعلمه عنه ما وجدناه على الورقة الاولى من الرسالــة وفيه انه كان قائمقام بناحية لجة من اعمال اناضولي ، وانه توفي

سنة ١٨٣٨ م •

ولا ندري لماذا كان في الجزائر • ولعله ذهب اليها موفدا من السلطان لامر ما ، ولكن يبدو لنا انه لم يذهب لاقناع الداي بالصلح • لاننا نراه في الرسالة يحرض الجزائريين على الحرب ، وعندما اعلمه الداي حسين انه قد خالف امر السلطان في كل ما فعل ، تراجع عن تحريضه وقال للاهالي : ان مدينة الجزائر قد خرجت من ايدينا ، ونسأل الله تعالى ان يديم لنا سلطاننا ، فان له في كل وجهة وجه اليها طرفه مدينة اعظم من هذه المدينة واوسع •

لكن يبدو انه كان له بعض الشأن • لان الداي استدعاه ليعلمه بهزيمة الجزائريين ، ولانه هو نفسه ذهب كما يذكر الى رئيس الفرنسيين يطلب الامان للخارجين من الاتراك • فأعطاه الامان • فلو لم يكن له شأن ما دعاه الداي ليستشيره ، ولما اجابه رئيس الفرنسيين الى اعطاء الامان •

ولعل المصادر التركية تفصح عن ترجمة لهذا الرجل

— ٤ —

حفظت هذه الرسالة بدار الكتب المصرية ، برقم ٢٢٠٢٥ مجاميع (تاريخ) ، جاء في عنوانها ما يلي :

نبذة في الكلام على سبب امتداد ايدي الفرنسيين الى بلاد الجزائر واستيلائهم عليها •

وهي مأخوذة عن رسالة تركيه •

ألفها : احمد افندي الجزائري ، قائمقام بناحية لجة من اعمال اناضولي ، والمتوفي بها سنة ١٨٣٨ م •

تعريب : محمد حليم افندي ، المعاون بديوان المكاتب الاهلية •

تذييل : حضرة ناظر قلم الترجمه وروضة المدارس رفاعة بيك رافع الطهطاوي •

وجاء في اول الرسالة ما يلي :

نبذة في الكلام على سبب امتداد ايدي الفرنسيس الى بلاد الجزائر ، واستيلائهم عليها • وهي مأخوذة من رسالة تركية ألفها احمد افندي الجزائري ، وكان قائمقام بناحية لجة من اعمال اناضولي ، وتوفي بها سنه ١٨٣٨ مسيحية ، كما وجد ذلك في بعض جرائد الاستانة العليه • وكان الافندي الموما اليه ممن حضر الواقعة وعاين ما حصل •

وتحت ذلك ما يلي :

فهذه نبذة جديرة بان يعتمد عليها ويوثق بها • لانها ربما كانت دليلا على صحة قوله ، وان لم يكن معصوما من زلل ، ولا بريئا من خلل • لان نبذته وان لم تفدنا فائدة جديدة في هذا الخصوص الا انها افادت حصول اصل الواقعة • انتهى •

وقد جعل المؤلف رسالته مرتبة على السنين ، فذكر الحوادث يوما بعد يوم ، وسنة بعد سنة •

والظاهر ان هذه الرسالة ترجمت ايام محمد علي ، ابان ازدهار الترجمة في مصر • ونحن نعلم ما كان لرفاعة الطهطاوي زعيم حركة الترجمة ، (المتوفي سنة ١٢٩٠ هـ) ، من اثر كبير في ذلك • ويبدو ان الرسالة بعد ان عربها محمد حليم افندي ، نظر فيها رفاعة بك وذيل عليها تذييلا قصيرا موجزا تكلم فيه على جغرافية الجزائر ، وارضها واهلها ، وتاريخها من الفتح الاسلامي حتى ايام الداي حسين ، ويشير الى حادثة المروحة ، ويذكر ان الظاهر ان احمد الجزائري كان من جملة المرسلين من طرف الباشا للصلح • وقد بينا استبعادنا لهذا • ويذكر ايضا ان حسين باشا لما ورد الى مصر لم يحسن محمد علي استقباله • لانه ضيع مملكة من ممالك الاسلام ، على رأيه ، لاننا كما رأينا كان محمد علي يطمع في توسيع سلطانه وضم

https://alboraq.blogspot.com

المغرب اليه ، تحت الاشراف الفرنسي •

ليس المهم ان يكون ما في الرساله جديدا او غير جديد ، ولكن المهم ان نبدأ بنشر جميع النصوص المتعلقة بالجزائر لجلاء ماضيها وحاضرها • وكم من كتب ينبغي ان تكتب وتنشر • ان الثورة وحدها، وما كان فيها من بطولات وتضحيات ستملأ ، اذا سجلت احداثها ، مئات من المجلدات ومئات ، فما بالك اذا ضم اليها الماضي الطويل •

فلعل هذه الرسالة تفيد في دراسة تاريخ الجزائر الحديث •

ولتكن تحيه متواضعة نرسلها عن بعد ، لابطال الجزائر ، وذكرى للدماء المهراقة في اراضيها والارواح المتطايرة في ثناياها •

وانها لجهد المقل •

بيروت ، ١٩٦٢

صلاح الدين المنجد

في الكلام على سبب امتداد ايدي الفرنسيس الى بلاد الجزائر واستيلائهم عليها • وهي مأخوذة من رسالة تركية ألفها احمد افندي الجزائري ، وكان قائمقام بناحية لجة من اعمال أناضولي ، وتوفي بها سنة ١٨٣٨ مسيحية ، كما وجد ذلك في بعض جرائد الاستانة العلية • وكان الافندي الموما اليه ممن حضر الواقعة وعاين ما حصل •

حوادث عام ١٢٤٣ هـ ــ ١٨٢٨ م

◉ « وسبب وقوع بلاد الجزائر في ايدي الفرنسيس انه في اليوم الخامس من شهر رمضان سنة ١٢٤٣ هجرية الموافق ٣١ مارث سنة ١٨٢٨ مسيحية وقعت بين حسين باشا وبين قنصل فرنسا مناقشة افضت الى المشاتمة بينهما ، فحنق القنصل من الباشا ، ومد يده الى سيفه ليضربه ، فهم الباشا بقتله ، لولا ان نائبه ابراهيم داي توسط بينهما ومنعه من ذلك وقال له : ان الشريعة لا تجوز قتل المستأمن • فعدل الباشا عن قتله واكتفى بضربه ، وطرده من المجلس • فلما عاد القنصل ارسل الى ملكه يخبره بما حصل •

◉ فلما كان في اليوم الخامس من شهر ذي القعده أتت خمس سفن من سفن الفرنسيس ودخلت مينا الجزائر مطوية الشراعات ، واشار من بها الى القنصل المذكور

بالمجيء اليهم • فذهب اليهم وبات عندهم •

فلما كان في الغد ارسل الى اهل الجزائر كتابا مضمونه انه مصر على بقاء الصلح بينهم مما كان ، وطلب ان يحضر اليه وجوه اهل الجزائر وأمراؤها ليعتذروا له عما فرط منهم في حقه ، لانهم ان أبوا بارزهم العداوة وناوشهم القتال •

فلما وصل المكتوب الى الباشا المذكور كتب الى القنصل كتابا يقول فيه : لم يقل لك احد اخرج من المدينة فان بقيت محافظا على الشروط القديمه فعد من تلقاء نفسك ، والا فافعل ما تريد •

فلما وقف القنصل على هذا المكتوب رفعت سفن الفرنسيس الاشارات الدالة على العداوة ، ونشرت اعلامها، ورجعت من حيث أتت •

◉ فلما كان اليوم الثاني من توجه السفن جمع الباشا من بالمدينة من الفرنسيس وقال لهم : ان اردتم الخروج لا امنعكم من ذلك ، وان اردتم المقام معنا فهاهي الجزائر بين ايديكم • فقالوا له جميعا: انا لا نبغي الخروج، لانك لست مخطئا فيما فعلت ، وانما المخطيء هو قنصلنا فاقرهم في منازلهم ولم يزعجهم من مواطنهم •